أ-د/ إبراهيم أبراش

التطبيع : مفهومه وسبل مواجهته

عندما قامت دول الكيان الصهيوني قرر العرب عدم الاعتراف بها كما قرروا مقاطعة البضائع الإسرائيلية وذلك بقرار صدر عن جامعة الدول العربية في ديسمبر 1945 . عاد الحديث عن المقاطعة مع توقيع اتفاقات السلام بين إسرائيل ومصر1979 ثم مع منظمة التحرير 1993 والأردن 1994،لأن هذه الاتفاقات ألزمت هذه الدول بالاعتراف بإسرائيل وإنهاء المقاطعة بكل أشكالها. توقف الحديث عن المقاطعة لسنوات واليوم عاد الحديث مجددا عن التطبيع مع الإسرائيليين بعد لقاء دافوس على البحر الميت الأسبوع الماضي وبعد مشاركة رجال أعمال فلسطينيين وشركات فلسطينية في معارض تجارية في إسرائيل،وفي ظل عالم عربي جديد يتشكل تحت الهيمنة الأمريكية.

لأنه يحدث لبس عند الحديث عن التطبيع فالأمر يتطلب تعريف التطبيع والعلاقة بينه وبين المقاطعة والفرق بين التسوية السياسية والتطبيع وما هو الموقف الفلسطيني المطلوب.

التطبيع يعني أن تكون أو تعود العلاقات طبيعية بين العرب وإسرائيل،بمعنى أن تكون علاقة كيان الاحتلال بالدول العربية تشبه علاقة دول العالم بعضها ببعض ،أو أن تعود العلاقات إلى ما كانت عليه قبل حرب 67 أو ما قبل 48. ولكن لا يمكن أن تعود العلاقات إلى ما كانت عليه لأنه لم تكن هناك علاقات أصلا قبل 48 وكانت العلاقات بعد ذلك علاقات عداء لأن إسرائيل كانت وما زالت دولة قائمة على الاحتلال . ولا يمكن أن تصبح العلاقات بين إسرائيل والدول العربية طبيعية أي تشبه العلاقات ما بين دول العالم وبعضها البعض لأن ذلك يفترض أن نبحث عن الأسباب التي جعلت العلاقات بين إسرائيل والدول العربية غير طبيعية،وفي هذه الحالة سنجد أن السبب هو الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية والأراضي العربية. وحتى تكون العلاقات طبيعية يجب إبطال السبب وهو الاحتلال ومادام السبب قائما إلى الآن فإن تطبيع العلاقات مع إسرائيل قبل حسم هذه الملفات سيعتبر نوعا من الاستسلام أو كأن العرب يعترفون بأنهم كانوا مخطئين في نهج تعاملهم السابق مع إسرائيل ويكون التطبيع رسالة من العرب لإسرائيل مفادها: نحن نعتذر عن سياستنا السابقة ، وهذه هي الخطورة بالنسبة للتسرع في عملية التطبيع .

لا شك أن إسرائيل وبجهود أمريكية استطاعت أن تحقق خطوة وهو التطبيع الرسمي : اتفاقيات سلام مع مصر،الأردن،ومنظمة التحرير الفلسطينية،ونتج عن ذلك سفارات ومكاتب تمثيل في المغرب وتونس و موريتانيا وقطر - مع انتفاضة الأقصى أغلقت مكاتب التمثيل في تونس والمغرب وموريتانيا - ، هذا تطبيع رسمي بين الدول والأنظمة ،وليس تطبيعا بين الشعوب،فعلى هذا المستوى الأخير مازالت هناك ممانعة قوية وقد تزايد الرفض الشعبي العربي والإسلامي لإسرائيل في السنوات الأخيرة بل وصلت حالة الرفض والعداء لإسرائيل للشعوب الأجنبية وداخل أوروبا التي ارتفعت فيها أصوات كثيرة تطالب بمقاطعة إسرائيل، ،وهو الأمر الذي أثار إسرائيل ودفع قادتها للشكوى لواشنطن أن اتفاقات السلام مع الدول العربية بقيت محدودة الأثر .

حاولت إسرائيل في كل الاتفاقات التي وقعتها مع مصر ومع السلطة ومع الأردن أن تحول التطبيع الرسمي إلى تطبيع مع الشعب، لأن إسرائيل تفهم جيدا أن هناك فرقا ما بين اتفاقات سياسية وما بين التطبيع الشعبي والثقافي، تعرف أن الاتفاقات الموقعة هي ما بين الحكومات وأن الاتفاقيات ما هي إلا التزامات دول ،وإسرائيل تريد الدخول إلى المجتمعات وتطبع العلاقات ثقافيا،من هنا نجد أنها في اتفاقيات كامب ديفيد و أوسلو، ووادي عربة ركزت على إزالة كل الأسباب أو حالات الكراهية أو العداء والحواجز النفسية التي تحول ما بين الشعبين . و للأسف هناك في نصوص هذه الاتفاقات ما يُلزم الطرف العربي على أن توقف وسائل الإعلام حملات التشكيك أو التشهير بإسرائيل وكل ما تعتبره إسرائيل مثيرا للأحقاد ضدها ، بل وصل الأمر إلى حد الطلب من الحكومات المصرية والأردنية والفلسطينية أن يعيدوا النظر في مناهج التعليم وسحب كل ما يمكن أن يثير الكراهية ما بين العرب و اليهود .

لذا من المهم جعل التطبيع معركة داخلية في كل مجتمع و لكل دولة من الدول العربية ،وعندما أقول انه يدخل في إطار الشأن الداخلي بمعنى أن الموضوع يتعلق بسياسة الدولة من جانب وموقف الشعب والمجتمع المدني من هذه السياسة من جانب أخر.فعندما يقرر نظام عربي إقامة علاقات مع الكيان الصهيوني والسماح للإسرائيليين بالتجارة والسياحة وتبادل الزيارات بل وممارسة رقابة على ما يقول الناس وما يفكرون به ويزعم هذا النظام انه يتصرف بما تمليه المصلحة الوطنية وان قرار التطبيع قرار سيادي ،فالشعب وقواه الحية مطالبة بالرد وتحديد موقف لأنهم الأقدر على تقدير إيجابيات وسلبيات التطبيع .

إذن التطبيع يعني إنهاء حالة المقاطعة بكل أشكالها،السياسية والاقتصادية والثقافية التي كان العرب يفرضونها على إسرائيل. ربما كانت إسرائيل قادرة على تحمل المقاطعة الاقتصادية ، لأن إسرائيل كانت تعتمد في كل ما تحتاجه على الغرب وعلى غالبية دول العالم ،بل يمكن القول إن ما كانت تخسره إسرائيل من المقاطعة العربية تعوضها عنه أمريكا وبأموال عربية ! كانت المقاطعة السياسية والثقافية أخطر على إسرائيل من المقاطعة الاقتصادية ، بمعنى أن إسرائيل كانت تجد من يعوضها عن الخسائر الاقتصادية الناتجة عن المقاطعة العربية ولكنها لا تستطيع أن تجد من يعوضها عن حالة العداء العربي وحالة عدم الاعتراف بها من جيرانها .المقاطعة السياسية والثقافية الشعبية هي ما يثير إسرائيل ومعها الولايات المتحدة .

إنه من المبالغة القول بأن التطبيع وإقامة علاقات مع إسرائيل سيحقق مصالح ومنافع اقتصادية للدول العربية التي تطبع مع إسرائيل، فماذا ستستفيد الدول العربية من إسرائيل ؟ ماذا يوجد عند إسرائيل ولا يوجد عند غيرها ؟ الدول العربية كما نعلم ،خصوصا التي تُطبع أو تسعى إلى التطبيع ، كلها تابعة للغرب وصديقة للولايات المتحدة الأمريكية ،وإسرائيل هي صنيعة الغرب وتعيش على المساعدات الغربية والأمريكية خاصة، التكنولوجيا الإسرائيلية هي جزء من تكنولوجيا الغرب، الخبرات الإسرائيلية هي خبرات الغرب، إذا كان التطبيع مع إسرائيل فيه فائدة لماذا نلجأ لإسرائيل التي هي تابعة للغرب صديق وحليف الأنظمة العربية؟ أو بشكل آخر ما الذي لدى إسرائيل لتقدمه للعرب ولا يوجد لدى الغرب ؟.إذن الأمر ليس أمر مكاسب وطنية حقيقة، بل هي مواقف سياسية يتم تقديمها لواشنطن من خلال الاعتراف بإسرائيل، مقابل إغراءات مالية أمريكية أو اتفاقات امن وحماية.

ومع ذلك يجب التمييز بين موقف الدول المحيطة بإسرائيل والتي تحتل هذه الأخيرة أراضيها - مصر ، الأردن ، السلطة الفلسطينية ، سوريا - وبين مواقف الدول العربية غير المعنية مباشرة بالصراع ،الأولى موقفها مختلف لأنها لا يمكن أن تستعيد الأرض المحتلة دون أن تعترف بإسرائيل، فهذه الدول تطلب من إسرائيل أن تنسحب من الأرض ،وإسرائيل تقول: نعم سأنسحب ولكن أريد المقابل . بينما الدول المُطبِعة من غير دول الطوق فإن إسرائيل لا تحتل أراضيها ومن المفترض أن يكون موقفها مساندا لموقف الدول المعنية بالصراع، بمعنى أن تضع سياساتها في خدمة الدول العربية المعنية وتجعل من التطبيع ورقة لخدمة القضية الأساسية وهي القضية الفلسطينية .